المركز الجامعي عبد الحفيظ بالصوف – ميلة –

قسم اللغة و الادب العربي

مادة : الأدب المقارن **الأستاذ: موسى كراد**

المدرسة العربية في الأدب المقارن.

منهج محمد غنيمي هلال في كتابه : الأدب المقارن

التأسيس للأدب المقارن عربيا:

يذهب بنا تاريخ تأسيس علم الأدب المقارن، عربيا، إلى الحديث عن مرحلتين متعاقبتين، ومختلفتين تماماً: مرحلة أولى استوعبت كتابات غير منهجية، ولم تُعرف باحتكامها لتصور علمي متماسك، ولا بانخراطها في تيار فكري مستقر، يُعنى بالمقارنة بين الآداب في لغاتها المختلفة. فقد انصرف كتاب هذه المرحلة، التي ربما من الموضوعية وصفها بالمرحلة الأولية التلقائية، إلى إقامة مقابلات بين كيفية الإنشاء الأدبي في اللغة العربية ولغة أخرى. ونستطيع أن نؤرخ لبداية هذه المرحلة ببدايات القرن العشرين، من خلال كتابات روحي الخالدي، وسليمان البستاني، ونجيب حداد، وقسطاكي الحمصي. فقد أتيحت لهؤلاء الكتاب إمكانية التعرف على لغة أو لغات أجنبية؛ مكّنتهم من قراءة آداب هذه اللغة، و التعرف على صفاتها البنيوية، واتجاهات موضوعاتها؛ وقد أفضت هذه الحالة إلى استدعاء الأدب العربي؛ لعقد مقابلة بينه وبين تلك الآداب، في إطار من السعي لرصد التمايز بينها وفق نزعة في الغالب معيارية1.

لم تكن المرحلة الأولى في تاريخ الأدب المقارن، عربياً، مرحلة تأسيسية؛ إذ لم تكن كتابات تلك المرحلة نشاطاً عقلياً منظماً، ولم تأتِ منسجمة مع أطروحات نسق درس الأدب المقارن كما عُرف في فرنسا قبل عقود من الزمن، وهو ما لم يتم التعبير عنه في مؤلف روحي الخالدي (تاريخ علم الأدب عند الفرنج و العرب و فيكتور هيجو) الذي ظهر سنة 1904، أي بعد عقود طويلة من ظهور الأدب المقارن في فرنسا، التي مثلث البلد الحاضن لظهور هذا اللون من ألوان المعرفة الأدبية، وقد اتجهنا، تحديداً، إلى الخالدي؛ لأنه العارف باللغة الفرنسية، الذي أمضى جزءاً من حياته في هذا البلد. وربما تُؤكد أسماء: الخالدي والبستاني والحمصي فكرة الاتصال التلقائي العفوي مع الغرب، وما رتب ذلك من دراسات قام بها هؤلاء، تخضع لهذا المطلب: العفوية والتلقائية. فهم، جغرافياً، ينتسبون إلى بلاد الشام التي عرفت تواصلاً قديماً مع البيئات الغربية، يزكيه قرب الجغرافيا، وقرب المعتقد أحياناً.

نتوقف عند المرحلة الثانية في تاريخ نشأة الأدب المقارن عربياً. و التي تبدأ زمنياً سنة 1938 عندما تم إقرار مادة مستقلة تُعنى بالمقارنة بين الآداب في كلية دار العلوم بمصر. وقد مثّل هذا التاريخ انعطافة مهمة في تاريخ هذا الحقل المعرفي؛ إذا دخل معه في إطار الدرس الأكاديمي، الذي سيخضع لضرورات البحث الجامعي المؤسساتي؛ من تحديد، ومنهجية، وبدايات تأليف؛ وبالتالي تكريس تراكم يؤشر لحضور هذا الحقل من بين المعارف المهتمة بالأدب.

كانت نزعة (الإحساس بالعالم) كما يصفها الدكتور عز الدين المناصرة3 قد أسهمت في الدفع باتجاه تكريس الأدب المقارن غربياً (تحت اتساع التوجه الكوزموبو ليتي في أوروبا)4، يُضاف إلى ذلك، هيمنة التفكير الوضعي العلمي الذي يدعو إلى ربط الظواهر بأسباب نشأتها وتطورها، بما في ذلك الظواهر الأدبية، وقد شكل هذا الاتجاه العلمي مناخاً مناسباً لشيوع الدراسات التاريخية المحققة والممحصّة في القرن التاسع عشر،(أكثر القرون جميعاً نزوعاً للتاريخ)5.تتفق الكتابات المؤرخة للأدب المقارن، على أن قرن البحث التاريخي التاسع عشر قد أسهم، وبفاعلية، في ظهور الأدب المقارن، كما أن النزعة العلمية التجريبية في هذا القرن قد دفعت إلى ضرورة أن يستقل الدرس المقارن بين الآداب بحقل خاص ينفرد به؛ وبذلك نعود إلى القرن التاسع عشر بمزيتين اثنتين قاد إليهما نسق المعرفة والتفكير السائد فيه، وهما: الحرص على استقلالية الأدب المقارن بحقل يخصه، وينشط فيه، في إطار من التحديد والضبط، وهما من

شروط أية عقلية تجريبية، ومزية أخرى ترتبط بالمنهج الذي بدأت معه ولادة الأدب المقارن وهو المنهج التاريخي الذي استفاد كثيراً من الفلسفة الوضعية.

شدد المقارن الفلسطيني الدكتور عز الدين المناصرة على (أن غنيمي هلال هو أول من أدخل هذا الحقل المعرفي بمنهجه الفرنسي(الحديث آنذاك) إلى العالم العربي فهو (رائد المنهجية) وقد أثّر -كتاب غنيمي هلال - على كل ما كُتب بالعربية في مجال الأدب المقارن في الخمسينيات والستينيات وعلى طريقة تدريسه في الجامعات العربية حتى في السبعينيات)7، وفي كتابه الأخير (علم التناص المقارن)، احتفظ الدكتور المناصرة بالتأكيد ذاته على ريادة الدكتور محمد غنيمي هلال لعلم الأدب المقارن في المجال الثقافي والفكري العربي، بل إنه جعل منه صاحب مدرسة في الأدب المقارن على المستوى العربي، وهو يشير بذلك إلى تبني الدكتور هلال للمنهج التاريخي في دراساته المقارنة، وهو منحى استقلّ به، وعُرفعنه. (كما هي حال مدرسة غنيمي هلال في الأدب المقارن التي لعبت دوراً مهماً في ترسيخ المنهج التاريخي منذ عام 1953، وحتى مطلع الثمانيات من القرن العشرين، وقد تأثر بها معظم المقارنين العرب)8.

أما الدكتور سعيد علوش فقد أسند إلى الدكتور محمد غنيمي هلال دور (أول مؤصل لهجرة المادة، ناقلاً بأمانة الآفاق الغربية التي وصل إليها الأدب المقارن، نظرية وتطبيقاً)9، وأن كتابه (الأدب المقارن) يُعد(نموذجاً فريداً في تهجير الأفكار الغربية نحو الشرق، إذ يظهر على أن غنيمي لم يطور فيها شيئاً بل استمر على اجترار الدرس الفرنسي المقارن)10.

فإلى الدكتور هلال يعود فضل التأسيس المنهجي لهذا العلم على المستوى العربي، ومعه بدأت الانطلاقة العلمية الحقيقية لهذا العلم، وما كان من محاولات سابقة تزامنت مع بدايات تدريس هذا العلم في الجامعة المصرية، و التي قام بها كل من نجيب العقيقي، وعبد الرزاق حميدة، وإبراهيم سلامة، فهي لم تكن في الحقيقة إلا محاولات أتاح لها وضع الأمر الواقع فرصة الظهور، والحضور؛ ذلك أن المادة قد قُررت جامعياً، وكانت هناك ضرورة أن يتكفّل أحد تدريسها، وإن لم تتوافر له الإمكانات الضرورية لإنجاز هذه المهمة، والتي من أهمها: إتقان لغات أخرى، والتزود بالعدة المنهجية اللازمة.

لقد سجل الأدب المقارن نشأته عربياً، في السياق العام للثقافة العربية الحديثة، كباقي أنساق المعرفة الأخرى، التي اعتمدت جميعها على مبدأ التأثر بالنموذج المعرفي الغربي، وبتبني مقولاته الفكرية والمعرفية، وباستدعاء ما ينشأ عنده من معارف وعلوم. وقد كان النموذج الغربي البديل الحاضر، أمام شغف العقل العربي،في النصف الأول من القرن العشرين؛ للتجديد والتحديث، ومسايرة تطور تاريخ المعرفة الإنسانية.

ولولا مناسبة اتصال الباحثين العرب، من أمثال:الدكتور غنيمي هلال، و الدكتور أحمد ضيف،وغيرهم في منتصف القرن العشرين، بالمؤسسات الأكاديمية الغربية، ما تأتي للدرس الأدبي المقارن أن يستقل بإطار علمي ومنهجي خاص، يستقل به، ويتطور فيه، على المستوى الأكاديمي العربي.

لذلك لا نجد مبرراً لهذه اللغة المشبعة بالإيحاءات في كلام الدكتور سعيد علوش، وهو يوظّف مفردة (تهجير)؛ذلك أن جهد الدكتور محمد غنيمي هلال في كتابه التأسيسي (الأدب المقارن) الذي صدرت طبعته الأولى عام 1953 يُدرج تاريخياً في إطار تأسيس البدايات، التي وجدت في أفكار المقارنين الفرنسيين مرجعيتها، وأسباب تشكلها، ولا نستطيع أن نلوم الدكتور هلال على عدم سعيه لتطوير أدوات بحثه في الأدب المقارن؛ ذلك أن المنهج التاريخي كان المهيمن زمن دراسته في فرنسا، وأن النقاش الحادّ حول صوابية هذا المنهج، وكفاءته، للقيام بدراسات مقارنة فعّالة، ومنتجة معرفياً وأدبياً، لم ينشط إلا مع نهاية عقد الستينيات (1958)،عندما أعلن المقارن الأمريكي رينيه ويليك رفضه للمنهج التاريخي.

إن طبيعة البدايات، والصفات الملازمة لمرحلة التأسيس، تحتم أن نقرأ للدكتور محمد غنيمي هلال أداءً فكرياً ينسجم مع المطروح في المدرسة الفرنسية، التي هيمن فيها المنهج التاريخي، وساد في دراساتها تصور المقارنة القائم على مبدأ التأثير والتأثر، ودراسة المصادر والتيارات الأدبية، التي يسهل معها تأكيد العلاقة بين طرفي المقارنة.

بل إننا نسجل أن الدكتور هلال قد أظهر قناعة بصواب المنهج التاريخي؛ انطلاقاً من نظرته القائمة على العلاقة بين أدب قومي وآخر، وأن التأثير متبادل بين هذه الآداب، دون أن يرتهن لمشاعر التبعية الأدبية، كما يصفها الدكتور عز الدين المناصرة.

ونعود بالكلمة، حول البدايات والتأسيس للأدب المقارن عربياً، إلى الدكتور محمد غنيمي هلال، الذي نقرأ له في كتابه (الأدب المقارن) نصاً دالاً يُظهر طبيعة المشهد الذي ظهر في إطاره الأدب المقارن: (إذا تتبعنا محاولات نشأة الأدب المقارن عندنا في الربع الثاني من هذا القرن وجدنا أن نشأته لم تكن نتيجة لحركة فكرية واتجاهات فلسفية، ومنحى علمي، ومنهج نقدي عميق، ودعوات نظرية يؤمن أصحابها أن هذا العلم ضرورة ملحة لا غناء عنها، ولا محيد عن الاستجابة إليها، كما كان شأنه لدى كتّاب الغرب وفلاسفتهم ومفكريهم)11.

هذا واقع بدايات الأدب المقارن، كما يظهره رائده عربياً، وهو توصيف ينطق بفكرة مركزية واحدة، وهي: أن الأدب المقارن لم ينشأ تراكمياً في البيئة الثقافية والفكرية العربية، ولم يُسبق بنقاش حضاري شامل يُفضي إلى تبلوره، وتشكل ملامحه؛ استجابة لهذا النقاش، ولم يتطور تطوراً طبيعياً في إطار حاضن معرفي عام، يوفّر له أسباب هذا التطور؛ من نشاط فلسفي ونقدي، يدفع باتجاه استحداث أنساق متعاقبة، تلبي احتياجات التفكير الطبيعية التي ستبحث دائماً عن النمو والتفرع. ولم يعرف الغرب هذه الحالة، وهو ما أشرنا إليه في مناسبة سابقة؛ فكانت نشأة الأدب المقارن عندهم طبيعية، ونتيجة مُنتظرة لمقدمات صاغها المجال الفكري الغربي.

(أريد للأدب المقارن أن يوضع في منهج الجامعات)12؛ لأن مطلب مواكبه المعروض المعرفي الغربي كان ضاغطاً، ولأن وعي النخب العربية في بدايات القرن العشرين كان منصرفاً إلى النموذج الغربي، وكل ما يصدر عن هذا النموذج واجب التبني والاستحضار. ويدرك المؤرخون للنهضة العربية الحديثة، أن سلوك الذهاب في أثر النموذج الثقافي والحضاري الغربي كان وسيلة الأمة الوحيدة لمعالجة الفجوة التاريخية التي تفصلها عن الأمم الأخرى. ولم يكن علم الأدب المقارن بدعاً في ذلك؛ فدخل هذا العلم المؤسسة الجامعية العربية، كما دخلت علوم أخرى هذه المؤسسة (دون استعداد أو وقوف على حقيقته)13؛ وقد أنتج غياب الاستعداد هذا دراسات تريد لنفسها أن تكون مقارنة، ولكنها لم تكن تترجم عن إدراك حقيقي لطبيعة هذا العلم ونظريته، وعندما تخضع هذه الدراسات لمقارنة مع أصول هذا العلم، تظهر المساحة الشاسعة التي تفصلها عن هذه الأصول. وأمام هذا الواقع، ينشأ انطباع نفسي لدى جزء من المشتغلين بهذا العلم، يقوم إما على عدم جدواه، أو على عدم إمكانية التخصص فيه14. لا ريب أنه من الموضوعية القول إن توصيف الدكتور محمد غنيمي هلال ينصرف إلى مرحلة محددة من تاريخ هذا العلم في البيئة الفكرية العربية، وهي المرحلة الأولى:العقدين الرابع والخامس من القرن العشرين؛ حيث أفضى غياب المتخصصين الفعليين فيه إلى سيادة دراسات تفتقر، حقيقة، لوعي متماسك بأفكار هذا العلم الأساسية. وإذا كنا نتضامن مع فكرة الدكتور هلال حول أن ظهور الأدب المقارن، عربياً، لم يعبر عن استجابة طبيعة لما هو متاح من حركة فكرية ومعرفية؛ وبما أن الأمر كذلك، لم تتحقق للمتصدين للمقارنة الأدبية المعرفة الداخلية في إطار البيئة الثقافية العربية، ولم يكن ذلك ممكناً إلا مع تسيير البعثات الدراسية إلى الجامعات الغربية للتخصص في الأدب المقارن، ومع عودة هؤلاء الموفدين تأسست البدايات الحقيقية له، مع إقرارنا بأن المشتغلين على الأدب المقارن من العرب، ظلوا أوفياء إلى اليوم، لمبدأ إعادة إنتاج الرؤى والمناهج الغربية، ولم تتجاوز إضافتهم الجانب التطبيقي، القائم على عقد مقارنات بين نصوص أو ظواهر أدبية، أحد أطرافها يعود إلى الأدب أو الثقافة العربية الإسلامية.

تعريف الادب المقارن حسب الدكتور هلال:

تعريف لعلم الأدب المقارن، إذ يرى فيه:(دراسة الأدب القومي في علاقاته التاريخية بغيره من الآداب الخارجة عن نطاق اللغة القومية التي كتب بها)30، وينظر إلى مدلول مصطلح (الأدب المقارن)(على أنه تاريخي؛ ذلك أنه يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة وصلاتها الكثيرة المعقدة، في حاضرها أو في ماضيها، وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير وتأثر،أياً كانت مظاهر ذلك التأثير أو التأثر)31.

يتضمن مفهوم الدكتور محمد غنيمي هلال للأدب المقارن الأبعاد الآتية:

1 – بعد تعدد الآداب؛ تبعاً لتعدد اللغات القومية.

2 – بعد المقارنة التاريخية، التي تسعى وراء رصد العلاقات بين الآداب القومية.

3 – التقاط صور التأثر بين طرفي المقارنة.

4 – أن صور التأثر وأشكاله تتم عبر موضوعات تمكّن لذلك، وتقود إليه، ويسهل رصد أنماط التأثر من خلالها، كموضوع المصادر، والأجناس الأدبية والتيارات الفكرية.

لا نقدم كشفاً معرفياً للمهتمين بالأدب المقارن عربياً،إذ قلنا إن الدكتور هلال يبدو وفياً لتصور أساتذته من المقارنين الفرنسيين، وأنه ظل ابناً باراً للمدرسة الفرنسية التي تشكّل وعيه في إطار مقولاتها النظرية، وأنه كان ملتزماً تماماً بالمنهج التاريخي الذي قامت المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن على مبادئه.

طبيعة الأدب المقارن حسب الدكتور غنيمي هلال:

تقوم طبيعة الأدب المقارن في تفكير الدكتور هلال على محاور مركزية أربعة: التأثير والتأثر – التأريخ لعلاقة التأثير والتأثر الحقيقي – اعتيادية التأثير والتأثر – الوظيفة المنتظرة من دراسات التأثير والتأثر.

المحور الأول: التأثير والتأثر:

لا يقيم الدكتور محمد غنيمي هلال بالاً لأية مقارنة بين موضوعين أدبيين لم تنشأ بينهما فعلاً صلات من التأثير والمتأثر. وإذا حيّدت أية دراسة هذا الأصل، ولم تبحث فيه، واتجهت مباشرة إلى موضوعات ومطالب أخرى، فهي لا تُعد من صميم الأدب المقارن، كما أن الدراسات التي تنصرف إلى عقد المقارنات بين الظواهر والموضوعات الأدبية التي لم تتأكد بينها علاقات التأثير والتأثر، وصلات أخذ اللاحق عن السابق، فإنها بعيدة تماماً عن أن تُدرج في إطار هذا العلم (الأدب المقارن).

يقول: (ويترتب على ما سبق... أنه لا يُعد من الأدب المقارن في شيء ما يعقد من موازنات بين كتاب من آداب مختلفة لم تقم بينهم صلات تاريخية حتى يؤثر أحدهم في الآخر نوعاً من التأثير أو يتأثر به)37، وإن تم رصد شيء من التشابه والتقارب بين ظاهرتين أدبيتين في لغتين مختلفتين، فإن هذا لا يُعد مبرراً كافياً للقيام بدراسة مقارنة بين هاتين الظاهرتين، يقول: (ولا يصح أن ندخل في حسابنا مجرد عرض نصوص أو حقائق تتصل بالأدب ونقده لمجرد تشابهها أو تقاربها دون أن تكون بينها صلة ما نتج عنها توالد أو تفاعل من أي نوع كان)38. والبحث في التشابه بين مختلفين لم تتأكد صلة بينها ليست له قيمة تاريخية؛ وبذلك لا يُعد في باب الأدب المقارن39. والدكتور محمد هلال يعي إمكانية حدوث التشابه بين النصوص الأدبية في الآداب القومية المختلفة؛ لتشابه الحوادث والظروف التي تقرّب بين التجارب الإنسانية، غير أن نتيجة هذا التشابه وانعكاسها على الأدب لا يُعد موضوعاً للأدب المقارن، ومجالاً من مجالات البحث فيه.(**ويجب ألا يفوت الباحث التفريق بين التأثر وبين مجرد توارد الخواطر وتلاقي الأفكار**).

يُظهر الدكتور هلال، من خلال النصوص السابقة، التزاماً واضحاً بمبدأ الصلة بين الآداب، والعلاقة المؤكدة التي تعود باللاحق إلى السابق، وتجعل من السابق مصدراً للاحق.

المحور الثاني: التأريخ لعلاقات التأثير والتأثر الحقيقي:

يوجّه التصور التاريخي نظرة الدكتور محمد غنيمي هلال لطبيعة الأدب المقارن، ويربط نظرته هاته بأصلين مهمين تقوم عليهما الدراسات التاريخية، فالأصل الأول يقترن بالدلالة العلمية الوضعية التي يؤمنها البحث التاريخي؛ ذلك أن نظام تراتب الأشياء وتعاقبها أفقياً يؤمن تفسيراً مقبولاً لنشوء الظواهر وتخلّقها، فعادة ما نربط الأشياء بأسبابها. وتتدرج هذه العلاقة في إطار زمني تاريخي، يقدّم السبب على النتيجة. وبناء على هذه الفكرة يصير الطرف المؤثر: شخصية أو نصاً، أو مصدراً ثقافياً، أو تياراً... سبباً مباشراً وفعّالاً في ظهور الموضوع الأدبي المتأثر.أما الأصل التاريخي الآخر، فهو وثيق العلاقة بالأصل الأول، بل متمم له، إذ أن طرفي علاقة التأثير والتأثر يندرجان في إطار صلة زمنية تقدّم السابق على اللاحق، وأن الأول يسبق الآخر زمنياً(فأحد الفنانين سابق، والآخر لاحق وأن الأول ليس له نموذج يحتذي به، على حين يتوافر للثاني ذلك النموذج، وأن الأول يرى الأشياء وجهاً لوجه، على حين يراها الثاني بواسطة الأول)40. وفق هذا التصور، يمكن أن نضع هكذا تفكير أدبي من ضمن انشغالات نظرية الأدب التي ترصد مساحة مهمة للمنهج التاريخي، وهي تبحث في سؤال نشأة الإبداع الأدبي، فالبحث التاريخي الرابط بين السبب والنتيجة، والسابق واللاحق، يقدّم تفسيراً للإنتاج الأدبي، يعود بولادته إلى أسباب وضعية تاريخية.

إن التأريخ لعلاقات التأثير والتأثر لا يقدم، فقط، تفسيراً لنشوء الظاهرة الأدبية،وإنما يصحب هذه في تحوّلاتها،وانتقالها عبر رحلة التطور الإبداعي، ومن الانتقال ما يقود الظاهرة الأدبية:نصاً،أو شخصية أدبية، أو مصدراً أدبياً ثقافياً،إلى تجاوز حدود اللغة القومية، وتعدّي أطر الخصوصيات الثقافية، و هنا بالتحديد تكمن منطقة عمل الأدب المقارن.وفي هذه المنطقة بالذات، ينشط المنهج التاريخي في الأدب المقارن؛ ذلك أن العلاقة القائمة على التأثير والتأثر بين الآداب تشترط صلة ما بينها، وهذه الصلة بالذات، هي ما يمثل أحد أهم قضايا البحث في الأدب وفق التصور التاريخي الذي يتبناه الدكتور محمد هلال(فالأدب المقارن يهتم بإثبات الصلة بين الوسط المؤثر والوسط المتأثر)41و (يستعان في ذلك بما أدلى به المؤلف من تصريحات عن نوع ثقافته وتأثره بكاتب أو ثقافة بلد)42، وتسجيل تصريحات الكاتب عن طبيعة مصادر تشكيل ثقافته، ومن ثم صياغة وعيه الإبداعي، يُعد من صميم الشأن التاريخي، ولا يجب التوقف، فقط،عند هذه التصريحات، بل لابد من التوسع في البحث التاريخي؛ ليشمل الحقائق التاريخية لعصر الأديب، أو الظاهرة الأدبية موضوع الدراسة المقارنة (كي يستطيع (المقارن)إحلال الإنتاج الأدبي محله من الحوادث التاريخية التي تؤثر في توجيهه ومجراه)43.

الأدب المقارن تأريخ للحظة التلاقي بين طرفي المقارنة (المؤثر والمتأثر)، وتأريخ لظروف وسياقات هذا التلاقي، وهو أيضاً تأريخ للأدب في إطاره القومي من جهة صفاته، وخصائصه المضمونية والشكلية،ثم تأريخ، بعد ذلك، لما طرأ على هذا الأدب القومي من تغيّرات مسّت صفاته وخصائصه المضمونية و الشكلية. فالأدب المقارن، وفق تصور الدكتور هلال، رحلة قاطرتها التاريخ؛ تنطلق من فرضية الصلة، لتؤكد من ثم، بالدلائل والقرائن التاريخية، وقوع هذه الصلة،وما يترتب عليها من نتائج أدبية وفكرية. ويلخّص الدكتور محمد هلال طبيعة الأدب المقارن التاريخية بامتياز في قوله:(لأننا لا نقصد بدراسة الأدب المقارن إلا الوصول إلى شرح الحقائق عن طريق تاريخي، وكيفية انتقالها من لغة إلى أخرى، وصلة توالدها بعضها من بعض، والصفات العامة التي احتفظت بها حين انتقلت إلى أدب آخر)44.

ولو أردنا إعادة إنتاج التصور التاريخي العلمي بشموليته وهو يضبط حركية المقارنة الأدبية، فإننا سنقترح صيغة تنتقل بالعملية التاريخية بين جوانبها المتعددة البانية لطبيعتها،وهي:

- الجانب العلمي الوضعي: التأثير.
- الجانب التاريخي الوثائقي: القرائن والأدلة التاريخية التي تثبت الصلة.
- جانب تأريخ الإبداع والإضافة: التحوّلات التي طرأت على الطرف المتأثر من جهة الصفات الإبداعية الأدبية الجديدة التي توفرّت له واستطاع تحصيلها.

المحور الثالث: اعتيادية التأثر:

من المنتظر أن يبرز احتجاج على ميل الدكتور هلال التاريخي، أو لنقل على اطمئنانه الزائد إلى المنهج التاريخي وصوابيته؛ بوصفه الألصق بطبيعة المقارنة الأدبية الحقيقية، وبوصفه الأكثر فاعلية؛ لقيام الأدب المقارن بدوره العلمي المعرفي الذي من أجله نشأ. وسيكون مصدر الاحتجاج أصوات مقارنين عرب متأخرين، اطلعوا على تطور الأدب المقارن، وعلى ما استجد على نظريته وتطبيقاتها من إضافات؛ ليعلنوا احتجاجهم واصفين المنهج التاريخي بالعقم45، وأنه يظهر تبعية طرف المقارنة المتأثر46. ويجمع الدكتور عبده عبود جملة المآخذ على المنهج التاريخي في قوله: (فدراسات التأثير والتأثر تقلل من أصالة الأديب المتأثر وتظهره في مظهر من يقلد الأدباء الأجانب، إن لم يكن في مظهر من يمارس السرقة الأدبية... فمما لا يمكن إنكاره حقيقة أن بحوث التأثير تعطي الجانب المتأثر دوراً سلبياً، إذ تضعه في موقف المنفعل لا الفاعل،طامسة بذلك دوره الإيجابي الخلّاق)47.

لم يكن الدكتور هلال غير مدرك لاحتمالات الاحتجاج على استفراد التاريخ بدراساته المقارنة، بل كان يعي ذلك، وينتظره؛ لذلك كانت له عديد الإشارات التي حاولت تصحيح الانطباع السلبي عن فكرة(التأثر) بين الآداب، وبين الأدباء (فالتأثير الرشيد لا يمحو الطابع المحلي، ولا يطغى على الأصالة القومية، ولا ينال من قدر الكاتب ومقدرته)48، ويُرجع الدكتور هلال اعتيادية التأثر إلى عاملين مركزيين، أولهما:أن(الأصالة المطلقة مستحيلة، وأن الأفكار متفرقة مجزأة ملك الإنسانية جمعاء، وكفي الناقد أو الكاتب أصالة أن يخلق منها كلا تظهر فيه شخصيته. ولذا كان التأثر الهاضم غير ماس بأصالة الكاتب أو الناقد)49، ويستشهد الدكتور هلال بتاريخ الأدب الإنساني ليؤكد أن الثقافات لم تتوقف يوماً عن تبادل المنجزات الأدبية بصورها المختلفة؛ فأمر التأثر شأن طبيعي بين آداب الشعوب المختلفة، ويطلق الدكتور هلال وصف: الاستعارات الأدبية50ليلطّف، من خلاله، الدلالات الحادّة التي قد تفرزها عملية التأثر حول الطرف المتأثر. ونفهم من هذا الوصف العامل الآخر الذي يبرر عملية التأثر، وبالذات من جهة الطرف اللاحق، ونقصد بهذا العامل: (أن الآداب في مختلف الأمم تتبادل فيما بينها علاقات التأثير والتأثر)51،وأن هذه العلاقات سلوك مألوف بين الحضارات والثقافات الإنسانية، دونما تقدير لاعتبارات التفوق أو التمايز؛ فهناك أمم تأثرت وهي قوية، كالأمة الرومانية في علاقتها بالأمة الإغريقية، والأمة العربية في علاقتها بالأمة الفارسية في العصر العباسي.

المحور الرابع: وظيفة التأثر:

يقيم الدكتور هلال في فهمه لطبيعة الأدب المقارن التاريخية ثلاث وظائف تفضي إليها الصلات المبنية على التأثر بين الآداب.

1 – وظيفة إنسانية؛ تقرّب بين الشعوب والحضارات، وتُخرج الآداب القومية منعزلتها52.

2 – وظيفة قومية؛ تؤديها المقارنات التاريخية التي تكشف عوامل القوة والتميز في الأدب القومي؛ الأمر الذي يجعله مؤثراً،أحياناً، في آداب أمم أخرى53.

3 – وظيفة تتعلق بتاريخ الأدب ونقده؛ فيكمل الأدب المقارن كتابة التاريخ الأدبي، ويعين على إنجازه؛ بتزويد مؤرخي الأدب بحقائق تتصل بمصادر التأثير الخارجي، وحينها يجد المؤرخ الأدبي في علاقة الأديب بالمصادر الخارجية معلومات تعين على كتابة تاريخ الشخصية الأدبية، أو التأريخ للظاهرة الأدبيةعموماً54.

لقد صاغ التصور السابق للدكتور محمد هلال حول طبيعة الأدب المقارن، كما يبدو، عاملان أساسيان، عامل خارجي، يرتبط بالاتجاه السياسي والفكري العام الذي ساد في منتصف القرن العشرين في مصر، وفي بعض الدول العربية الأخرى، ونقصد به الاتجاه القومي العربي. ويدفع هذا الاتجاه ناحية التعرف على خصائص الموروث الأدبي القومي؛ مما يقوي الإحساس بالانتماء، ويغذي الشعور بسمو الهوية المنتمي إليها، وقد تجلّت بعض ملامح هذا الاعتزاز بالهوية، من خلال الحرص على تكريس مقارنات تظهر القومية العربية: ثقافة وأدباً، بمظهر المصدر المؤثر الذي أسهم، وبحيوية، في تشكيل جزء من المدونة الأدبية الإنسانية التي وجدت في الأدب العربي، والثقافة العربية الإسلامية مرجعاً مناسباً لكثير من إمكانات الإضافة المضمونية والشكلية.

ويتصل العامل الآخر بالاتجاه الأدبي المهيمن في مرحلة تكوين الوعي للدكتور محمد هلال، وهو الاتجاه التاريخي، الذي مارس تأثيراً عالياً، ووحيداً، في توجيه دراساته المقارنة.